

المؤثرات الفكرية والدينية بين النصارى والمسلمين

في العصور الوسطى في بلاد المغرب

(مظهر من مظاهر التسامح والتعايش)

**Intellectual and religious influences between Christians and
Muslims in the Middle Ages
A manifestation of tolerance and coexistence**

عبد القادر شريف¹

¹ جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله، الجزائر

cherifaek01@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/05/11 تاريخ القبول: 2022/12/29 تاريخ النشر: 2022/12/31

Abstract:

The dialogue between different cultures, civilizations or religions falls within the framework of the duty to address the human being for acquaintance and cooperation, human respect for the opinion of others and the beliefs and traditions of others, the customs and traditions of others. Constructive dialogue contributed to progress and the absence of dialogue had negative consequences in bulk. Evaluation of behavior, peace and urbanization and non-rejection of the other party, and its exclusion, and thus interaction with all human elements.

المؤلف المرسل: عبد القادر شريف

البريد الإلكتروني: cherifaek01@gmail.com

Keywords:

Dialogue - religious tolerance - influences - Christians - freedom of worship.

الملخص:

إن الحوار بين الثقافات أو الحضارات أو الديانات المختلفة يدخل في إطار وجوب أن يخاطب الإنسان أخاه الإنسان من أجل التعارف والتعاون، واحترام الإنسان لرأي الغير ومعتقدات الآخرين، وعادات وتقاليد الغير، إن الحوار البناء كان يساهم في التقدم وغياب الحوار كانت نتائجه سلبية بالجملة. على أن الاختلاف بين الناس والأمم حكمة، لأنه يؤدي إلى تعميق التفكير وعليه وجب على المسلم أن يبادر إلى الحوار البناء المبني على الحجة والافتناع الذي لا يؤدي إلى الصدام، لأن الثقافة والحضارة هي وعاء لتهديب الأخلاق وتقويم السلوك، والسلام والعمران وعدم رفض للطرف الآخر، وإقصاءه؛ وبالتالي التفاعل مع جميع العناصر البشرية.

الكلمات المفتاحية:

الحوار-التسامح الديني-المؤثرات-المسيحيين-حرية العبادة.

1. مقدمة:

إن الاختلاط والتأثير المتبادل الطويل الحاصل بين النصارى والمسلمين في العصور الوسطى، يجسد لنا إحدى أهم مظاهر التسامح والتعايش في ظل حرية العبادة، والتفكير. ومن مظاهر هذا التسامح والوئام بين العناصر السكانية في العصور الوسطى في بلاد المغرب، وهو ما يدعو للإعجاب تلك الإحتفالات، والتضامن بين النصارى والمسلمين دون أن يعترض أحد ذل-ك ما عدا تشدد

بعض الفقهاء في ذلك، كما كان النصارى يحتفلون مع المسلمين في أعيادهم ويقدمون بعض الأطعمة لهم خاصة مناسبة عيد الفطر.

لقد مهّرت الثقافة الإسلامية جماعة المسيحيين الذين عاشوا في كنف المسلمين فقلدوهم في كثير من مظاهر ثقافتهم، فاتخذوا أزيائهم ولغتهم ونمط حياتهم في كثير من الأحيان مع إحتفاظهم بدينهم. لقد كانت التجارة والسفارة من الوسائل المهمة في عمليات إنتقال التأثيرات الحضارية إلى الغرب الأوروبي، وقد مثلت بلاد المغرب منطقة عبور وجسر مهم في عملية إنتقال الحضارة العربية الإسلامية، ومثلت السفارات بين الطرفين فضاء للقاء رجالات الفكر من البلدين لقد أدى إختلاط العرب بالغرب المسيحيين عبر كل الوسائل والطرق إلى إقتباس العديد من العلوم العربية والإسلامية في مختلف المجالات.

إن حرص علماء الغرب الإسلامي على تثبيت مبادئ الحوار والمناظرة وحرية تبادل الأفكار، شجع العلماء الأوروبيين إلى زيارة بلاد المغرب، بهدف الإستفادة من الحلقات العلمية والمناظرات الفلسفية .

تهدف هذه المقالة للوقوف على بعض من مظاهر المؤثرات الفكرية والدينية بين منطقة المغرب الإسلامي ودول أوروبا المسيحية وتجليات هذا التأثير في التواصل العلمي بين المنطقتين من خلال بروز شخصيات حاولت الإستفادة من العلوم الإسلامية وتوظيفها لخدمة أغراضها الدينية. ترى ماهي هذه المؤثرات ومن المستفيد من ذلك؟ وهل مثلت فعلا مظاهر للتعايش والتسامح بين الديانات؟

2. مظاهر التعايش والتسامح

لا يمكن إغفال الإمتزاج الثقافي الذي حصل بين النصارى المقيمين بالدولة الحفصية والسكان الأهالي. هذا التأثير المتبادل كنتيجة من نتائج التعايش المشترك، إن روح التسامح التي شاعت في بعض المجالات، سمحت بظهور تأثير متبادل مشترك على أرض واحدة. إن تجليات هذا الإمتزاج إنعكست على أرض الواقع، ولا أدل على ذلك الإختلاط بين الطرفين، هو تعلم اللغتين العربية والإفرنجية من طرف هؤلاء وأولئك، وجسد مظهرًا من مظاهر التعايش المشترك.

وينهض تأسيس مدرسة للغة العربية في تونس سنة (648هـ / 1250م)، دليلاً آخر، بحيث تم الإتصال بين فرقة الدومنيكان وملك أراغونة، هذا الأخير الذي إتصل بالمستنصر الحفصي، يعرض عليه فكرة المدرسة بحيث وافق على إنشائها، فتم إرسال ثمانية رهبان منصرين إلى تونس، لتأسيس المدرسة. بدأت نشاطها واستقطبت العديد من النصارى لتعلم العربية والعلوم العقلية من أجل فهم طريقة تفكير المسلمين وبعدها يتم التنصير، والقدرة على المناظرة فمثلاً رامون البنيافورتي (572 هـ- 679 هـ / 1176م- 1280م) Ramon de penyaafort أكد على ضرورة إرسال المزيد من المبشرين وتعليمهم لغات الأقوام الذين يرسلون إليهم وخاصة اللغة العربية بهدف مناظرة المسلمين لإقناعهم بالتنصير..

في ظل إقبال النصارى على الثقافة الإسلامية، وتأثر المسيحيين بمناهج التعليم الإسلامي ونمو حركة النقل والترجمة فإن الثقافة الإسلامية أصبحت منتشرة في جميع أنحاء أوروبا في القرن السابع الهجري، القرن الثالث عشر الميلادي/ بفعل ثلاثة عوامل هي:

معرفة المسيحيين للغة العربية، لغة المعارف الإسلامية والدين الإسلامي. -

- الاتصال الفلسفي بين أوروبا والأمم الإسلامية في وقت كانت فيه الصلة قوية بين الفلسفة والحياة الدينية في تلك الحقبة، مما أرسى علم مقارنة الأديان.

- معرفة الأوروبيين للعلوم الدينية الإسلامية من خلال النهل من اللغة العربية وعلومها.

هذا التأثير انعكس على ترجمة الكتب وعلى رأسها ترجمة القرآن للاتينية، ففي منتصف القرن الثاني عشر ترجم القرآن " رغبة في نقده ومناقشته في (538هـ / 1143م) وهي الترجمة التي طُبعت بعد ذلك بأربعة قرون في مدينة بازل بسويسرا عام (950هـ / 1543م)."

إن الإهتمام باللغة العربية كان الهدف منه هو تسخيرها للتبشير بالمسيحية بين المسلمين، وإتاحة الفرصة لهم لقراءة وفهم الإنجيل باللغة العربية، ولقد كان لهذا العمل صداه الإيجابي المتمثل في إطلاع المسيحيين على الدراسات الإسلامية والعلوم الفكرية الفلسفية منها من خلال تعرفهم على نظريات نوابغ المسلمين في هذا المجال أمثال الغزالي وابن رُشد وابن حزم وغيرهم.

إن تعرف المسيحيين على القرآن من خلال ترجمته إلى اللاتينية بألفاظ ومعانٍ عربية فسح المجال لإستخدام اللغة إستخداماً هاماً، وبروز ما عُرف بالجدل الديني الذي أثير في شكل خصومات ومناظرات كلامية بين علماء أهل الذمة وفقهاء المسلمين فيما يخص الأديان، والتي من خلالها إتضح مدى تأثير العلماء الذين عاشوا في بيئة إسلامية بالنمط الفلسفي الجدلي للمفكرين المسلمين، فمثلاً ترك طابع الغزالي العقلي أثراً على الباحثين النصراني، واستعمل المسيحيون في كثير من رسائلهم العلمية براهين الغزالي على مسائل لاهوتية، كما

أن الحركة الصوفية في أوروبا تأثرت بعناصر إسلامية. وحتى رايمون مارتان تأثر بكتابات المسلمين، ففي كتابه الدفاع عن الإيمان يظهر فيه أسلوب الغزالي في كتابه تهافت الفلاسفة.

3. نماذج لشخصيات فكرية:

ويعتبر رايمون لول من بين الشخصيات البارزة في مجال التبشير والتنصير، وكان متأثراً بالإسلام والأدب والفلسفة العربية وبالتصوف، درس العربية تسع سنوات، تعلمها جيداً حتى ألف إحدى رسائله بالعربية وهي كتاب التأمل في الله وترجمها إلى الكتالانية، لقد إطلع لول على الفلسفة الإسلامية، فدرس آثار ابن سينا والفارابي بالعربية، كما إستعمل براهين الغزالي المنطقية لدحض فلسفة ابن رشد¹. لعبت أفكار الغزالي الفلسفية دوراً هاماً في تشكيل نظامه الفلسفي، كما أثرت نظريات الغزالي الصوفية في التنظيم الصوفي "للول". حاول توظيف هذه الأفكار لخدمة ديانته والتبشير بالمسيحية، فزار تونس مرتين الأولى سنة (692هـ- 693هـ / 1292م-1293م)، والثانية (714هـ-715هـ / 1314م-1315م) بهدف تنصير سكانها وذلك بمناظرة الفقهاء والدعوة لدينه علنية². ساهمت المناظرات الكلامية، والمحاورات الجدلية في تحقيق نتائج إيجابية، على أن التأثير الديني تجلى في وجود حالات من الطائفة النصرانية إعتنقت الإسلام بفعل عوامل عدة منها التأثير بالنسيج الإجتماعي، وإطاره الروحي الذي لعب فيه المتصوفه دورهم قبل العهد الحفصي وبعده، من خلال حسن المعاملة والروح الطيبة التي كان يُبديها هؤلاء المتصوفة أو نتيجة إنهمارهم بكرامتهم وخوارقهم³.

كان رايمون لول يقوم بحملة تبشيرية في الأوساط الإسلامية، فسافر إلى الشرق الأوسط والمغرب؛ وخاصة الجهة الشرقية من شمال إفريقيا في كل من

تونس وبجاية.⁴ أقام في بجاية من الربيع إلى الخريف من سنة (707هـ / 1307م) وأعلن في ساحة عمومية أمام ملأ من المسلمين ببجاية قائلاً " أن شريعة النصارى حق ومقدسة ومقبولة عند الله، وأما شريعة المسلمين فهي باطلة وخطأ أو ضلال، وأني على إستعداد للبرهنة على هذا" ⁵ وعلى إثر هذا الصنع ثارت عليه العامة، ولكن مفتي بجاية الذي سماه في كتابه ب"عمار "Amar"، لطفه وتدخل لإنقاذه من الجمهور ودعاه للمناظرة، وقال له "برهن على ما تذهب إليه وأني على إستعداد للإستماع إليك ومناقشتك، وسأله المفتي إذ كنت تعتقد أن شريعة المسيح هي الصحيحة، وأن شريعة محمد غير صحيحة فبين لنا ذلك بالأدلة القاطعة، فإرتضى ريمون ذلك واقترح "لنتفق على نقطة مشتركة (الرحمة الإلهية) ثم سأقدم لك الدليل القاطع" وبعدها وافق المفتي على هذا الإقتراح تناول ريمون الكلمة، وحاول أن يبرهن على صحة التثليث ⁶. لكن المفتي رفض المناقشة في هذا الموضوع، ولعل مرد ذلك أن فقهاء المغاربة كانوا يخشون الدخول في الجدل الديني خوفاً من الوقوع في الخطأ.⁷

والجدير بالذكر أن ريمون لول شهد وأقر لهذا المفتي بالمعرفة الفلسفية، وبأنه ذائع الصيت فيها، ومشهور بها فقال " إن هذا المفتي كانت له شهرة فلسفية، أو كان مشهورا بالفلسفة "وهذا الوصف حاول من خلاله أن يبرهن على قدرته الفائقة على الجدل مع ذوي الإمتياز في مجال الفلسفة نفسها، مما يؤكد على أن هذا الفقيه كان منشغلا بالكلام والفلسفة.⁸

كان "لول" يدعو للثالوث وللدين المسيحي بأسلوب فلسفي، وتذكر المصادر أن الذي طرده هو خالد الأول الذي كان واليا على قسنطينة، فقد أمر

بإخراجه من البلاد بعد أن سجن وكان عمره 72 عاماً.⁹ كما يكون قد أثر هذا الفيلسوف على بعض رجال الدين الفرنسيين حيث تولى الأستاذية في بعض المدن الفرنسية مثل مونبيلييه وباريس سنة (663هـ-705هـ / 1274م و1305م)، وكان هذا المفكر ينتقد الإسلام ويعتقد أن اللجوء إلى القوة أصبح ضرورياً ضد المسلمين الذين لا يرغبون في إعتناق المسيحية.¹⁰

لقد لعب هؤلاء المتصوفة دوراً هاماً وبارزاً في عملية التوعية الدينية وإصلاح المجتمع كما مثلوا أداة من أدوات الدعوة ومساهمتهم في مقاومة البدع في ظل ظروف إجتماعية وإقتصادية، بل وحتى سياسية مضطربة والأمر المهم في ذلك قدرة هؤلاء على إقناع بعض النصارى من إعتناق الدين الإسلامي. هذا الذي دفع البابوية عن طريق رجال الدين يتخوفون من التأثير الإسلامي على المحيط النصراني.

وهو ما يدل على وجود حالات تحول لتلك الديانة.¹¹ إن حالات الإرتداد عن الإسلام لإعتناق المسيحية في إفريقية هي أقل بكثير من الحالات العكسية.¹² ومن بين الحالات على إعتناق الإسلام أحد أهم القسيسين المسمى "أنسالمة تورميديا" المعروف "بعبد الله الترجمان"، هذا التصرف جعل أحد أصدقائه يدفعه من أجل العدول عن فعله، ليأخذه إلى صقلية قائلاً: "فاسمع مني واقبل على بركة الله تعالى، ولا تخف ضياع مال ولا جاه ولا غير ذلك... واخرج من ظلمة الإسلام إلى نور النصرانية... واعلم أن الله ثالث ثلاثة في ملكه ولا سبيل أن تفرد ما جمعه الله لنفسه... ومثلك لا يحتاج إلى مُعَلِّم".¹³ وعندما أراد الإسلام حضرة إلى تونس لدى السلطان الحفصي "أبي العباس أحمد" وقال للخليفة "عليك إحضار التجار النصارى وبعضاً من الجنود لسمع رأيهم فيه، وهو غير موجود،

حتى لا يتم الطعن فيه، فشهدوا فيه بالعلم والورع، وعندما أخبرهم بإسلامه لم يصدقوا ذلك واندeshوا، فخرج لهم وتشهد، فقالوا مادفعه لذلك إلا الرغبة في الزواج.¹⁴

يقول برنشفيك أن أنسالم تورميذا ندم ورجب في الرجوع إلى أوروبا وأعرب للقساوسة عن ندمه، على أن عبد الله الترجمان بقي وفيًا لإسلامه رغم المساومات العديدة منها صدور قرار العفو عنه من قبل البابا بينوا الثالث عشر في سنة (815هـ/1412م).¹⁵

ترك هذا العالم الجليل مؤلفاً قيماً يدحض العقائد المسيحية ويفضح أكاذيب الأنجيل الأربعة بالأدلة والبراهين بإعتباره متبحراً في علم اللاهوت الكاثوليكي أسماه "تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب"، يبين من خلاله فرق النصارى ومذاهبهم وبيان إفتراءاتهم على عيسى وأمه عليهما السلام، واستعرض مآخذ النصارى على المسلمين، وأفرد أخيراً دلائل ثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بنص الزبور والتوراة والإنجيل و"بشارة الأنبياء ببعثته وبقاء ملته".¹⁶ يعبر كتابه المسمى "تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب من الكتب الهامة في الرد على الأفكار المسيحية المحرفة بالأدلة والبراهين، خاصة وأنه كان رجل دين وهو على معرفة تامة بأساليب النصارى.¹⁷ والأمر الآخر الذي لا بد من الإشارة إليه في الجانب العلمي، هو أن الفقهاء حذروا من التعامل مع النصارى في إطار بيع الكتب لهم إلا ما يخص شريعتهم، لأنهم يترجمون كتب المسلمين وينسبونها إليهم أو إلى أساقفتهم، وهي من تأليف المسلمين.¹⁸

3. الخاتمة:

إن الأمل في تنصير المغرب ثانية كان على ما يبدو شغل الكنيسة لفترة طويلة من الزمن، لذا نراها تستنفر علماءها ورجال الكنيسة وتُجند كل قواها للدعاية الدينية المنظمة أو ما سُمي بالتبشير المسيحي بإفريقية والمغرب الإسلامي عموماً. إن روح التسامح والتعايش التي عاشها النصارى في المجتمع الإسلامي كانت وراء ما تميزت به حياتهم بالحرية، وكذلك وصولهم إلى هرم السلطة، كما تأثروا بالحياة الإسلامية وأثروا فيها.

ولعل من انعكاسات هذا التسامح الديني والتعايش السلمي ما يلي:

- التواصل الحضاري بين مختلف الأقليات.
 - التكامل الاقتصادي، بادخال مهارات جديدة أتى بها بعض المسيحيين.
 - التفاعل الاجتماعي أدى الى الاستفادة من أصحاب الحرف باختلاف أنواعها من التركيبات السكانية المتعددة والمختلفة للفضاء الإسلامي الواسع الأرجاء.
 - ظهور ثقافة احترام الآخر باختلافاته المتعددة.
 - شكّل التعايش السلمي دافعا لإعلان الطاعة والولاء للسلطين والحكام، وحال دون القيام بالعصيان في بعض الفترات.
- أدى التسامح الديني الى التضامن الاجتماعي، حيث أن الضرورة الاقتصادية(تبادلات تجارية ونشاطات حرفية)، فرضت التضامن بين مختلف الأجناس.

4. الهوامش:

- ¹ - مانويل فايشر: رامون لول والعالم الإسلامي، ندوة الغرب المسيحي والغرب الإسلامي، ص 195: محمد الصمدي: المرجع السابق، ص 203.
- ² - Clarad maillard, Clara Maillard : **Les Papes et le maghreb aux 13eme et 15eme siecles etude des lettres pontificales de 1199a1419**, brepols publishres, belgium, 2014, pp160-163.
- ³ - محمد فتحه: النوازل الفقهية والمجتمع (أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي من القرن 6 إلى 9هـ/12م)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، المغرب، 1999، ص 170-171.
- ⁴ - Clara Maillard : Op.Cit.p.160.
- ⁵ - عمار طالبي: الحياة العقلية في بجاية الفلسفة والكلام والتصوف، مجلة الأصالة، نفس العدد والسنة، ص 168.
- ⁶ - A.Llinares : Op.Cit.pp.63-73.
- ⁷ - عمار طالبي: المرجع السابق، ص 168.
- ⁸ - الشيخ بوعمران: الفيلسوف ريمون لول في بجاية سنة 1307م، مجلة الأصالة، العدد، 19، 1975، ص 150.
- ⁹ - عمار الطالبي : المرجع السابق، ص 167-168.
- ¹⁰ - Georges.C.Anawati: **La Recontre de deux cultures en occident au moyen age**, dialogue islamo-chrétien et activité missionnaire, studia-lulliana-vol29-f2, El-cairo1989, p175
- ¹¹ - محمد المنوني: التيارات الفكرية في المغرب المريني، مجلة الثقافة المغربية، العدد 5، مطبعة محمد الخامس الثقافية والجامعية، فاس، المغرب، 1972، ص 25.
- ¹² - روبربرنشفيك: المرجع السابق، ج.1، ص 497.
- ¹³ - عبدالله الترجمان : تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، تحقيق، عمر وفريق الداعوق، دار البشائر الإسلامية، ط.1، 1988، ص 52.
- ¹⁴ - الترجمان : المصدر نفسه، ص 286-287.48 Clara Maillard: Op.Cit,p
- ¹⁵ - روبربرنشفيك : المرجع السابق، ج.1، ص 499.

¹⁶ - عبد الله الترجمان : المصدر السابق، ص 63-64.

¹⁷ -رضوان البارودي : رضوان البارودي: دراسات وبحوث في تاريخ وحضارة المغرب ولاندلس، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، 2007، ص 226.

¹⁸ - ليفي بروفنسال : ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1955م.ج.2، ص 57.

5-قائمة المراجع:

- 1- الشيخ بوعمران: الفيلسوف ريمون لول في بجاية سنة 1307م، مجلة الأصالة، العدد، 19، 1975.
- 2- رضوان البارودي : رضوان البارودي: دراسات وبحوث في تاريخ وحضارة المغرب ولاندلس، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، 2007.
- 3- عبدالله الترحمان : تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، تحقيق عمر وفيق الداعوق، دار البشائر الإسلامية، ط.1، 1988.
- 4- عمار طالبي: الحياة العقلية في بجاية الفلسفة والكلام والتصوف، مجلة الأصالة، نفس العدد والسنة.
- 5- عمار طالبي: الحياة العقلية في بجاية الفلسفة والكلام والتصوف، مجلة الأصالة، نفس العدد والسنة.
- 6- ليفي بروفنسال : ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1955مج.2.
- 7- محمد المنوني: التيارات الفكرية في المغرب الميرني، مجلة الثقافة المغربية، العدد 5، مطبعة محمد الخامس الثقافية والجامعية، فاس، المغرب، 1972.
- 8- محمد فتحه: النوازل الفقهية والمجتمع(أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي من القرن 6 إلى 9هـ/12-15م)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، المغرب، 1999
- 9- Clarad maillard, Clara Maillard :LesPapes et le maghreb aux 13eme et 15eme siecles etude des lettres pontificales de 1199a1419 ,brepols publishres,belgium,2014

- 10--Georges.C.Anawati:La Rencontre de deux cultures en occident au moyen age,dialogue islamo-chrétien et activité missionnaire,studia-lulliana-vol29-f2,El-cairo1989.